مترلة العلوم الإنسانية

في كتاب "الكلمات والأشياء"

عمر التاور

المركز التربوي الجهوي، إنزكان.

اقترنت العلوم الإنسانية منذ التباشير الأولى لظهورها بإشكاليات ابستيمولوجية وميتودولوجية عويصة، ربطت الاعتراف بعلميتها وتحديد وضعيتها الابستمولوجية ضمن منظومة المعارف المعاصرة، بهاجس أسئلة شائكة ومؤرقة، مثل التساؤل عن مدى شرعية أية دراسة علمية تحيل الذات نفسها إلى موضوع، وهل تقوم العلوم الإنسانية على التفسير أم على الفهم؟، على المنهج التكويني أم على المنهج البنيوي؟ وهل تستمد نموذجها العلمي من الرياضيات أم من علم الأحياء، من العلوم الطبيعية أم من العلوم الاستنتاجية؟

إن هذه التساؤلات التي أثيرت بين المفكرين حول إمكانية قيام علوم إنسانية، أو بالأحرى حول إمكانية خضوع الظواهر الإنسانية لمنهاج تجريبي تستقي منه حقائق لها من الصدق واليقين ما لحقائق العلوم الطبيعية، ما كانت لتثير انتباه ميشيل فوكو أو تستأثر باهتمامه، فعلى الرغم من تأكيده على أن "التحديد الأركيولوجي لعملية ظهور العلوم الإنسانية يظهر أنها تستند إلى عملية تحويل لنماذج مستعارة من العلوم"(1)، إلا أنه لم يجعل من تأكيد الاختلاف بين العلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية غاية في حد ذاتها، وإنما أراد أن يضع ما قيل عن مسألة علمية العلوم الإنسانية موضع تساؤل ونقد. فإذا كانت بعض الدراسات قد أسست لتقليد نقدي يرصد مواطن الاختلاف بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ويرد المشاكل الإبستمولوجية للعلوم الإنسانية إلى ما تتسم به من تداخل بين الذاتي والموضوعي(2)، مما يحتم ضرورة البحث عن إمكانية تكوين نموذج للعلمية خاص بها، فإن تفكير

ميشيل فوكو في نسق العلوم الإنسانية (وعلى العكس من ذلك)، يتخذ شكل نقد جذري لعلمية هذه العلوم، فبدل أن يبت في مدى علميتها وصدق نتائجها، يبادر إلى إصدار حكم عليها، واصفا إياها بالعلوم الزائفة، التي ليست ولا يمكن أن تكون علوما على الإطلاق. فما الداعي إلى مثل هذا الحكم؟ هل هو مجرد حكم قيمة، أم أنه حكم جاء نتيجة اختبار وتحليل أركيولوجي لوضعية وموقع هذه العلوم في خريطة معارف الحداثة؟ ما هي الدواعي والمبررات المنطقية والابستمولوجية التي دفعت ميشيل فوكو إلى تبني هذا القول وإصدار مثل هذا الحكم؟ وإذا كان مؤرخو الأفكار قد درجوا على إدراج الإثنولوجيا واللسانيات والتحليل النفسي ضمن قائمة العلوم الإنسانية، فما الذي جعل ميشيل فوكو يستثنيها من هذه القائمة، ويعترف لها –في المقابل– بالعلمية واليقين؟

– ظهور العلوم الإنسانية:

إن الجديد عند ميشيل فوكو هو أنه لا يعتد بكل تلك العوامل التي يحاول تاريخ الأفكار أن يفسر بها حدث ظهور العلوم الإنسانية، بل يعتبرها مجرد ظواهر رأي تندرج في حدث الظهور ذاته، فبدل البحث عن عنصر الربط أو خط التماس بين المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الطارقة في الواقع الأوروبي وبين ظهور العلوم الإنسانية، يبادر فوكو إلى التحليل الأركيولوجي للحدث (الإنسان) الذي طفا على سطح المعرفة، وسمح بظهور العلوم الإنسانية في نهاية القرن التاسع عشر، قبل أن يخلص من هذا التحليل الأركيولوجي إلى أن هذه العلوم لم تظهر إلا بظهور الإنسان كموضوع للمعرفة. وما كان للإنسان أن يظهر ويتخذ موضوعا للمعرفة لولا ظهور قطاعات الاقتصاد والحياة واللغة، التي قاربته في أبعاده التجريبية ككائن حي، ناطق، وصانع أشياء. ولهذا يقرر فوكو أن ظهور العلوم الإنسانية هو "حدث في نسق المعرفة"، ولا يمكن أن يفهم هذا الحدث إلا في ضوء إعادة توزيع شامل للإبستيمي الذي تحرر من حيز التمثيل، في نفس الوقت الذي ظهرت فيه علوم البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة.

ولعل ظهور العلوم الإنسانية (أو معرفة الإنسان) في هذه الظروف كفعل محايث ومعاصر لأفول نجم التمثل وظهور العلوم التجريبية (الاقتصاد والبيولوجيا وفقه اللغة)، هو ما أهلها لتصبح أحد المظاهر الحاسمة للتقدم الذي حققته العقلانية التجريبية في تاريخ الثقافة الأوروبية.

بيد أن السؤال الذي يطرح في هذا الصدد هو كالتالي: ألم يكن الإنسان ذاتا مؤسسة للمعرفة منذ هيراقليطس وسقراط، بل وموضوعا للمعرفة، على الأقل، منذ ديكارت والفلاسفة التجريبيين؟. نعم

لقد كان كذلك، لقد كان موضوعا للمعرفة المتعالية/الميتافيزيقية المتصلة بالكينونة والطبيعة الإنسانية، ولم يكن قط موضوعا للمعرفة التجريبية الوضعية، أي ككائن متناه، كائن عامل ناطق وحي. إن الإنسان مخلوق حديث العهد والنشأة ولم يظهر كموضوع للمعرفة الوضعية و"يفرض نفسه في الثقافة الغربية باعتباره ما يجب التفكير به وما يجب أن يعرف في آن واحد"(3) إلا في نهاية القرن 19م، أي عندما بدأ يظهر كوجه تجريبي ومتناه، تتشكل معرفته انطلاقا من تفكير تجريبي في أبعاده التجريبية الثلاثة ككائن حي وناطق وعامل.

ولما كان المتعالي/الترنسندنتالي قد توارى بتواري إبستيمي التمثل مخلفا المكان ومهيئا المجال لسيادة الوضعي، ولما كان الوجود الإنساني (أو كينونة الإنسان)، كما قرر فوكو، هو أساس كل الوضعيات، فإن ذلك أهَّل الإنسان ليكون المبدأ الذي تتشكل انطلاقا منه كل معرفة وترتد إليه، وربما كان هذا الجدل بين البداية والنهاية، بين منطلق المعرفة وغايتها، هو ما جعل الإنسان كموضوع للمعرفة محل تعارض مزدوج، ومحل نزاع وصراع دائم بين المعارف، من قبيل النزاع بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، والعلاقة الإشكالية بين الفلسفة والعلوم الإنسانية.

ولا يدل هذا النزاع على التناقض الخالص في حد ذاته، وإنما هو دلالة على وضع ابستمولوجي (معين ومحدد بدقة في التاريخ) تجووزت فيه فكرة الترييض (mathématisation) التي كانت حاملة لوحدة المعارف وللتجانس التام لحقل المعرفة في العصر الكلاسيكي، أي وضع ابستيمولوجي كان ينذر بانفجار في اتجاهات مختلفة، وبدأ بالتفكك والتجزؤ منذ القرن 19م، بالشكل الذي جعل من فكرة الترييض مجرد وميض ذكرى، وجعل من ترتيب المعارف الحديثة انطلاقا من نسق الرياضيات مهمة شبه مستحيلة، أثبت التحليل الأركيولوجي للحقل المعرفي الحديث أنه لم يكن ينتظم وفقها، بقدر ما كان ينتظم كحقل وكمجال معرفي وفق ثلاثة معارف أو علوم هي: العلوم الاستنتاجية (الرياضيات والفيزياء) والعلوم التجريبية (البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة) ثم التفكير الفلسفي.

ولم تكن هذه المعارف جزرا متباعدة فيما بينها، وإنما كانت متصلة فيما بينها بأواصر صلة ومفاصل تفاعل، مشكلة بذلك سطحا معرفيا مشتركا أو"مقام محايثة" بلغة جيل دولوز. فأما العلوم الاستنتاجية، فتلتقي مع العلوم التجريبية في اعتماد نموذج الرياضيات، إما بتطبيقها على العلوم التجريبية أو بترييض ما يمكن ترييضه في مجالات اللغة والبيولوجيا والاقتصاد، وأما العلوم التجريبية فتلتقي مع الفلسفة في ما يمكن أن ينشأ داخل حقل الحياة والاقتصاد واللغة من مفاهيم ومشكلات فلسفية من قبيل مشكلة الحياة ومشكلة الاستلاب والأشكال الرمزية، أما الفلسفة فتلتقي مع العلوم الاستنتاجية وتحددان معا

بعدا أو سطحا مشتركا، هو بعد الصياغة الصورية للفكر(la formalisation de la pensée)، وهذه الحدود أو مفاصل التفاعل التي تقع وتحصل بين المعارف – وتصل وتفصل بينها في آن – هي ما يشكل الأساس الحامل لإبستيمي العصر الحديث.

وبما أن الاركيولوجيا "بحث في الحدود"، وبما أن التحليل الأركيولوجي لوثيقة الحداثة قد أثبت أن إبستيمي العصر الحديث قائم على مثلث المعارف السالف ذكرها، فإن النظر الأركيولوجي في مثلث المعرفة، وفي الحدود الفاصلة/الواصلة بين المعارف، يبرز ألا موقع للعلوم الإنسانية في مسطح المعرفة وضمن خريطة المعارف، فحكمها الاستبعاد، دون أن يعني الاستبعاد هنا نفي إمكانية وجودها بشكل ضمني في ما تخلفه المعارف من ثغرات وفجوات، أو نفي إمكانية اتصالها بسائر المعارف الأخرى، من حيث إن العلوم الإنسانية تتصل بالرياضيات في سعيها الدءوب نحو التشكيل الرياضي، وتتصل بالفلسفة في سعيها نحو استجلاء المظاهر التجريبية للكينونة الإنسانية، وتتصل أخيرا بالعلوم التجريبية بما تستعيره من البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة من مفاهيم ومناهج. وحتى النماذج الثلاثة التي تغطي ميدان العلوم الإنسانية (علم النفس وعلم الاجتماع وتحليل الآداب والأساطير) تحدد الصلة الثلاثية القائمة بينها (=علوم الإنسان) وبين الاقتصاد والبيولوجيا وفقه اللغة.

فأما القطاع السيكولوجي/علم النفس، فقد "وجد موقعه حيث ينفتح الكائن الحي، بامتداد وظائفه وخطاطاته العصبية–الحركية وضوابطه الفيزيولوجية"(4)، وأما القطاع السوسيولوجي/علم الاجتماع، فقد "وجد موقعه حيث يبني الفرد العامل المنتج المستهلك تمثيلا عن المجتمع الذي يمارس فيه هذا النشاط"(5)، وأما قطاع تحليل الآداب والأساطير فيجد موقعه في "تحليل الآثار الكلامية التي يمكن أن يخلفها الفرد أو المجتمع"(6).

– النماذج الثلاثة:

إن هذه النماذج الثلاثة المكونة لنسق العلوم الإنسانية، لا تحدد فقط الصلة بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية بل إنها مستعارة ومستوحاة رأسا من هذه الأخيرة، فالمفاهيم المؤسسة لقطاعات البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة، من قبيل الوظيفة والمعيار (البيولوجيا) والقاعدة والصراع (الاقتصاد) والدلالة والنظام (فقه اللغة) "تغطي مجال معرفة الإنسان برمته دون أن تهمل منه شيئا"(7)، حتى ليبدو الأمر شبيها بإسقاط لمفاهيم البيولوجيا على السيكولوجيا، ومفاهيم الاقتصاد على السوسيولوجيا، ومفاهيم فقه اللغة على تحليل الآداب والأساطير. وبفضل هذا الإسقاط المفاهيمي والمحاكاة المنهجية،

أصبحت السيكولوجيا هي دراسة الإنسان عن طريق الوظائف والمعايير، وأضحت السوسيولوجيا هي أساسا دراسة الإنسان عن طريق القواعد والصراعات، أما تحليل الآداب والأساطير فهو بالأساس تحليل الدلالات والأنظمة التي تحيل وتدل. علما أن من شأن السيكولوجيا أن تلجأ أحيانا إلى مفاهيم الاقتصاد (القاعدة والصراع)، كما من شأن السوسيولوجيا أن تلجأ بدورها إلى مفاهيم البيولوجيا (الوظيفة والمعيار)، وكذا الأمر بالنسبة لتحليل الآداب والأساطير، الذي يمكنه أن ينازع السيكولوجيا والسوسيولوجيا في التوسل بمفاهيم القطاعات التجريبية؛ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تداخل العلوم الإنسانية كلها، واختلاط أوراقها وانتفاء الحدود فيما بينها، وتفسير بعضها ببعض، مما ينبئ بعدم دقتها ويقينها.

وعليه، فإن اتصال العلوم الإنسانية بمثلث المعارف ما هو إلا دلالة على ما يدعوه هنري بوانكاري بمنظومة العلاقات التي تربط بين المعارف والعلوم بقرابة طبيعية وخفية(8)، ولا يجب أن يدفعنا نحو الاعتقاد في أن هذه العلوم قد نشأت فعلا تحت تأثير من الرياضيات أو العلوم التجريبية أو الفلسفة، لأن هذه العلوم "لم تنشأ إلا لحظة خضوع الإنسان لأول مرة لإمكانية معرفة وضعية"(9)، أي عندما أصبح الإنسان (ككائن يعمل وينطق وينتج) موضوعا للبيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة. ورب قائل يقول: إن للعلوم الإنسانية علاقة بالرياضيات بدليل محاولة كوندرسيه تطبيق حساب الاحتمال على السياسة، أو تحديد فيشنر للعلاقة اللوغارتمية بين حدة الإحساس وتصاعد الإثارة، أو استخدام علماء التربية لنظرية الإعلام لفهم ظواهر التعلم، إلا أنه رغم كل هذه المحاولات وغيرها، لا تشكل الرياضيات في نظر فوكو عنصرا أساسيا في الوضعية الخاصة للعلوم الإنسانية، وذلك لسببين اثنين:

أولا: لأن التحليل الأركيولوجي لم يكشف في تاريخ العلوم الإنسانية القبلي شكلا جديدا من أشكال الرياضيات أو بروزا لفكرة الترييض في مجال الإنسانيات، بل كشف بالأحرى نوعا من تراجع وتصدع حقلها الوحدوي "فيكون بروز الإنسان كموضوع للمعرفة، ونشوء العلوم الإنسانية مرتبطا بما يمكن وصفه بنزع الصفة الرياضية أو تقليصها في حقل العلوم الإنسانية"(10). وعليه، فإن رد مشروع العلوم الإنسانية إلى محاولة تطبيق الرياضيات على ظواهر الإنسان من قبيل: السياسية والإحساس والتعلم، لا يفسر حدثا أساسيا مثل ظهور العلوم الإنسانية، وإنما هو مجرد أثر سطحي طارئ. وحتى لو فرضنا جدلا أن ثمة فعلا علاقة بين الرياضيات وظهور العلوم الإنسانية، فإن"البعد الرياضي هو الأقل إشكالا بين الأبعاد الثلاثة التي تفتح للعلوم الإنسانية مجالها الخاص وتهيئ لها المجال الذي تتكون فيه"(11)، لأن "انحسار الرياضيات وليس تقدمها هو الذي سمح بأن ينشأ الإنسان كموضوع للمعرفة"(12).

ثانيا: لأن العلوم الإنسانية إنما تتوجه في الواقع إلى الإنسان من حيث هو كائن يحيا، ينطق وينتج، ومن حيث هو إنسان قادر على تمثل وإنتاج معرفة حول الحياة واللغة والعمل، أي حول ذاته. وبما أن العلوم الإنسانية ليست تحليلا لما هو الإنسان بطبيعته (لأن مثل هذا التحليل منوط بالعلوم التجريبية والاستنتاجية)، وبما أنها ليست أكثر من تحليل كيفيات تمثل الإنسان للأبعاد التجريبية (اللغة، الحياة، العمل) المحددة لذاته، فإن فوكو سيقرر أن مكانة ووضعية العلوم الإنسانية توجد في جوار وبالموازاة وعلى الحدود المباشرة مع تلك العلوم التجريبية التي تبحث في الحياة والعمل واللغة، وتلك الفلسفات التي تقيم ميتافيزيقا للحياة واللغة والعمل.

إن الباعث على استبعاد العلوم الإنسانية من دائرة معارف الحداثة، لا يرتد حقيقة إلى مجاورتها للعلوم والفلسفة ولا حتى إلى سعيها نحو مطلب الدقة والموضوعية (العلمية) عبر التشكل الرياضي، وإنما هو متصل ومرتبط بإشكالية ظهور هذه العلوم في حد ذاتها. فهي لم تظهر على السطح لأن الإنسان تحول إلى موضوع للمعرفة فقط، بل ظهرت عندما بدأ الإنسان يتمثل ذاته كموضوع للمعرفة الوضعية، أو بالأحرى عندما أصبح قادرا على تمثل ذاته ككائن حي وناطق وعامل، وجملة التمثلات هاته التي يكونها الإنسان حول ذاته ككائن تجريبي، هي ما يشكل الأساس الحامل للعلوم الإنسانية. فلا عجب إذن، أن تكون العلوم الإنسانية مجرد تمثل للمعرفة الوضعية أو معرفة ثانوية وعرضية، لا حياة لها ولا وجود خارج ما يخلفه مثلث المعرفة من ثغرات وفجوات. أقصد أنها معرفة لا تهتم إلا بما هو ثانوي وعرضي في العلوم الأخرى، ولهذا تنازع العلوم الإنسانية الفلسفة التأملية من حيث إن كلتاهما تعيش – منذ القرن 19م على الأقل – على ما ليس له معنى في العلوم. وإذا كان برتراند راسل قد قرر أن "الأسئلة التي يمكن الإجابة عنها تنتقل إلى العلوم، أما المسائل التي لا يمكن، في ظل الحالة الراهنة للمعارف، إيجاد حل لها بكيفية قطعية، فهي وحدها التي تبقى وتشكل فضلة اسمها الفلسفة"(13)، فإنه يمكن أن نقرر أيضا مع فوكو أن العلوم الإنسانية علوم زائفة لا مكان لها ولا موقع في مضلع المعرفة.

وبما أن العلوم الوضعية (التجريبية والاستنتاجية) لا تهتم إلا بتحليلية التناهي(14)، أي بأبعاد الإنسان التجريبية (اللغة، العمل، الحياة)، وتطرح جانبا كل ما يتصل بما يتمثله الإنسان حول ذاته وكينونته وحول العالم، لأن هذه التمثلات لا تندرج في نسقها (أو بالأحرى لا تنتمي إلى الإبستيمي الحامل لها، والذي لم يظهر إلا بالقطيعة مع فكرة النظام والتمثل)، وبما أن هذه الجوانب المتصلة بالتمثل والتعالي، والتي تقع على هامش العلم الوضعي، هي ما يشكل المواضيع الأثيرة للعلوم الإنسانية، فإن فوكو يخلص إلى القول بأن العلوم الإنسانية لم تقطع مع ابستيمي التمثيل والميتافيزيقا على صعيد موضوعها، ولهذا

ستظل (رغم سعيها نحو العلمية باستلهامها لمفاهيم ومناهج العلوم الوضعية) نوعا من الانتشار الضبابي داخل حيز مسطح المعارف، ومجرد مراوحة للخطو بين المتعالي والوضعي، بين الفلسفة والعلوم الوضعية، بالشكل الذي يجعل تحديد موقعها صعبا، ويجعل منها كيانا إبستمولوجيا خطرا، ومهددا للعلوم الاستنتاجية والتجريبية والفلسفة بالانزلاق إلى مجالها، والتلوث بخطر النزعات النفسانوية والسوسيولوجية، أي بالنزعة الإنسانية التي تعتبر- في نظر فوكو - أخطر محك يواجه المعرفة الحديثة ويهددها من الداخل. وبما أن العلوم الإنسانية هي الوريث الشرعي للنزعة الإنسانية في العصر الحديث، فإن ذلك يجعل منها وسيطا خطرا، تقتضي الضرورة استبعاده من حقل المعرفة ونزع صفة العلمية عنه، وذلك لثلاثة أسباب على الأقل:

- إن العلوم الإنسانية لم تتحرر قط من قانون التمثيل الذي بقيت محدودة بحدوده.

- إن استلهام العلوم الإنسانية لمفاهيم ومناهج العلوم التجريبية لا يبرر علميتها، ولا يسعفها في إنتاج معرفة وضعية/تجريبية حول الإنسان ككائن حي ومتكلم وعامل.

- إن العلوم الإنسانية علوم لقيطة وزائفة لا موقع لها في مثلث المعارف، فلا هي بفلسفة ولا هي بعلم تجريبي/وضعي، وأقصى ما يمكن أن تصل إليه هو أن تحافظ على إرث التمثيل والنزعة الإنسانية في زمن الحداثة.

لكن: إذا كان فوكو قد استبعد العلوم الإنسانية من حيز المعرفة، واعتبرها علوما غير حقيقية أو زائفة بعبارة هابرماس، فلماذا لم يستبعد علوما مثل التحليل النفسي والاثنولوجيا واللسانيات من دائرة معارف القرن 19م، ولماذا لم يدرج هذه العلوم أصلا في قائمة العلوم الإنسانية؟

-الإثنولوجيا والتحليل النفسي:

إن الجواب الذي يقدمه فوكو بهذا الصدد هو أن هذه المعارف لا تتخذ من الوعي والتمثيل موضوعا لها، بل تتجاوز التمثيل والوعي إلى الاهتمام بما يدعوه هابرماس بأدغال اللاوعي واللاشعور(15)، أي أنها لا تتصل لا بإبستيمي التمثل ولا بإبستيمي الإنسان، بل هي إيذان بقرب ظهور إبستيمي جديد يتجاوز الإنسان إلى النسق، وإلى ما يقبع خلف الأبعاد التجريبية، وخلف الإرادة الإنسانية ذاتها، بالشكل الذي يظهر أن الإنسان لم يكن سوى موضوع مؤقت للمعرفة، حدث ظرفي محكوم بمكر تاريخي أدى إلى تلاشي اللغة وسمح بظهوره في فضاء المعرفة، وهو نفس المكر الذي أدى إلى اندثاره بمجرد عودة اللغة إلى توهجها ولملمة أشلائها، بما يفيد أن عودة اللغة بعد طول غياب

حتمت على الإنسان الاختفاء بعد حضور لا يزيد عمره عن مائتي سنة، ويعني أن الإنسان ليس أكثر من ابتكار حديث العهد، إنه مجرد انعطاف بسيط في معرفة القرن 19م، وسرعان ما سيندثر مثل "وجه من الرمل مرسوم على حد البحر"(16)، ويختفي كموضوع للمعرفة ليفسح المجال لظهور موضوعات ومفاهيم جديدة ستوجه فعل التفكير في الحقبة المعاصرة.

ولو أننا تأملنا قليلا هذه المعارف التي يستثنيها فوكو من دائرة العلوم الإنسانية (التحليل النفسي والإثنولوجيا واللسانيات) ويدعوها بالعلوم المضادة لعلوم الإنسان، لألفينا أنها هي ما يشكل دائرة البنيوية (أو ما يصطلح على تسميته بالعلوم البنيوية) وأنها تعبر بوضوح عن انصياع فوكو وأخذه بفكرة كلود ليفي ستروس القائلة بأن "الوعي هو بمثابة العدو الخفي لعلوم الإنسان"(17)، وبما أن هذه المعارف تنأى عن الوعي والتمثيل وبالتالي عن الذات، فإن فوكو يستبعدها ويستثنيها من دائرة علوم الإنسان. وقد يفيد هذا الاستبعاد والاستثناء دفاعا عن البنيوية بتجريدها من لاعلمية العلوم الإنسانية وتحريرها من رواسب فلسفات الوعي والنزعة الإنسانية، إلا أن الراجح عندنا هو أن فوكو إنما أراد من وراء ذلك، القول بأن هذه المعارف المضادة هي إيذان بأفول الإبستيمي الحديث، وموت الإنسان كموضوع للمعرفة، وبداية تشكل إبستيمي جديد ستنتظم وفقه معارف العصر الراهن.

إن ما منع العلوم الإنسانية – في نظرنا– من التحول إلى علوم حقيقية على شاكلة العلوم الاستنتاجية والتجريبية، هو عجزها عن إنتاج معرفة وضعية/تجريبية حول الإنسان. صحيح أن هذه العلوم "لم تنشأ إلا لحظة خضوع الإنسان لأول مرة لإمكانية معرفة وضعية"(18)، أي بالتزامن مع ميلاد ونشأة العلوم التجريبية. وعلى الرغم من هذه النشأة المتزامنة وعلاقة الجوار مع بقية العلوم، لم تستطع العلوم الإنسانية إنتاج معرفة وضعية حول الإنسان، وما منعها من ذلك إلا انحصارها في التمثيل حد القول إن العلوم الإنسانية هي الوريث الشرعي لقانون التمثيل في العصر الحديث. وبما أن التمثيل لا مكان له في مثلث معارف القرن 19م، فقد بقيت العلوم الإنسانية تنتج تمثيلات ومعرفة متعالية وتخمينية حول الإنسان، شبيهة إلى حد ما بتلك التي تنتجها الفلسفة، والتي تتخذ شكل ميتافيزيقا للحياة والعمل واللغة.

العلوم الإنسانية إذن عاجزة عن إنتاج معرفة وضعية /تجريبية حول الإنسان، من حيث إنها لا تنتج سوى معارف خارجية، أقصد تمثيلات حول العمل واللغة والحياة، كما أنها عاجزة عن إنتاج معرفة تأملية وفلسفية حوله، من حيث إنها توظف مفاهيم ومناهج مستوحاة من العلوم التجريبية

والاستنتاجية، ولا تتصل بطبيعة البحث الفلسفي. ولهذا تظل العلوم الإنسانية مجرد مراوحة للخطو بين الفلسفة والعلم، تحوم على الجوانب التجريبية للإنسان وجوانبه المتعالية، فلا هي بفلسفة ولا هي بعلم.

لكن: إذا لم تكن العلوم الإنسانية علوما حقيقية، وإذا لم تكن فلسفة صريحة، فما عساها تكون إذن؟

ذاك هو السؤال الذي بقي مضمرا طي ضلوع كتاب "الكلمات والأشياء"، والذي تحاشى فوكو فيما نعتقد الإجابة عنه، لا لأنه لا يملك جوابا محددا، بل لتلافي الصعوبات المنهجية التي يمكن أن يطرحها هذا الجواب على مستوى المنهج المتبع والمفاهيم الموظفة في هذا الكتاب. إن مثل هذا السؤال لا يمكن أن يكون موضوعا للبحث الأركيولوجي، لأنه يقتضي البحث عن المعاني وكشف الحجب وسبر الأغوار، وهو ما لا يتفق وطبيعة الأركيولوجيا التي تبقى محدودة بحدود السطح، تلاحظ من الخارج، وتدرس وتصف الخطاب (خطاب العلوم الإنسانية)، إن لم نقل إنه يدفع الأركيولوجيا إلى الانزياح عن المسار والانزلاق إلى متاهات التأويل. وبما أن التأويل والأركيولوجيا يقعان على طرفي نقيض، وبما أن فوكو يأبى على نفسه الانتماء إلى الفلسفات التأويلية، فإنه سيتخلى نهائيا (في المؤلفات اللاحقة للكلمات والأشياء) عن وصف المعرفة (الأركيولوجيا) وسيستعير منهجا قديما أو بالأحرى سيجدد منهجا قديما اختص به نيتشه وهو منهج الجينيالوجيا، ليكشف القناع – بلغة هابرماس – عن تلك الممارسات السلطوية الخفية التي تحكم متن العلوم الإنسانية من الداخل، ويثبت أن لخطاب العلوم الإنسانية قيمة تحكمية وأصلا منحدرا من الممارسات السلطوية، قبل أن يقرر: "إن الشيء الذي أدهشني لدى دراستي للعلوم الإنسانية هو أنه لا يمكن أن نفصل إطلاقا بين نشأة كل هذه المعارف وبين ممارسة السلطة"(19).

*** خلاصة:**

يمكننا الآن أن نفهم، بعد أن تقرر لدينا ما يمكن أن ندعوه بالتلازم العضوي بين المعرفة والسلطة في متن العلوم الإنسانية، لماذا كان فوكو يرفض الاعتراف بعلمية العلوم الإنسانية، ولماذا كان يرى في القول بتأثير الرياضيات أو العلوم التجريبية أو الأحداث التي عرفها القرن 19م، مجرد ظواهر رأي لا تفسر حدث ظهور العلوم الإنسانية، لأن العلوم الإنسانية لم تكن تقصد بناء معرفة بالإنسان على شاكلة المعرفة الرياضية والتجريبية، ولأنها ببساطة لم تكتشف قواعدها الإبستمولوجية انطلاقا من استلهام نماذج علمية سابقة. وإنما هي معرفة نشأت على هامش وفي جوار بقية العلوم، لا لإشباع حاجات معرفية معينة، وتفسير متغيرات جديدة متصلة بالموقع الذي بدأ يحتله الإنسان في القرن 19م،

بل للتلبس بلبوس هذه المعارف رجاء إخفاء وإضمار الخلفيات السلطوية التي تحكمها. ولهذا سيعمل فوكو جاهدا في كتابه "المراقبة والعقاب" على تأكيد المنشأ التقني للعلوم الإنسانية، والدفاع عن أطروحة تفيد أن العلوم الإنسانية مجرد سلطة في ثوب معرفة، لم تكن تقصد إلى الإنسان ككائن عاقل وناطق وعامل – كما كان يتبدى في تراث النزعة الإنسانية– وإنما ككائن منفلت يلزم ضبطه وإخضاعه، ومن هنا ضرورة الغوص في قلب هذه العلوم للكشف عن مركب المعرفة والسلطة، واستشراف ميدان جديد "يقلب بقوة علاقات التبعية بين أشكال المعرفة وممارسات السلطة"(20).

1–ميشيل فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة فريق الترجمة بمركز الإنماء القومي، إشراف: مطاع صفدي، بيروت، 1990، ص: 284.

2– Jean Piaget : l'épistémologie des sciences humaines, Gallimard, Paris, 1970, p : 47

3–ميشيل فوكو: "الكلمات والأشياء"، مرجع مذكور، ص: 283.

4–نفس المرجع، ص: 291 5–نفس المرجع والصفحة. 6–نفس المرجع، ص: 292.

7–نفس المرجع، ص:293.

8–محمد عابد الجابري: مدخل إلى فلسفة العلوم، الجزء الثاني، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1976، ص: 345.

9–ميشيل فوكو: "الكلمات والأشياء"، مرجع مذكور،ص: 288.

10–نفس المرجع، ص: 287. 11–نفس المرجع، ص: 288. 12–نفس المرجع والصفحة.

13– Bertrand Russell : problèmes de la philosophie, Payot, Paris, p : 185 -

14– Hubert Dreyfus, Paul Rabinow : Michel Foucault : un parcours philosophique, traduit de l'anglais par fabienne durand-bogaert, édition Gallimard, Paris, 1984, p :39

15–يورغين هابرماس: "كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل"، ترجمة: جورج أبي صالح، مجلة العرب والفكر العالمي،عدد 18/17، شتاء/ربيع، 1992، ص: 22.

16–ميشيل فوكو: "الكلمات والأشياء"، مرجع مذكور، ص: 313.

17– Claude Levi-Strauss, anthropologie structurale,éd. Plon, Paris, 1973, p. 343.

18–ميشيل فوكو : الكلمات والأشياء، مرجع مذكور، ص:289.

19–أورده: هاشم صالح: "فيلسوف القاعة الثامنة"، مجلة الكرمل، عدد 12، 1984، ص: 30.

20–يورغين هابرماس: "كشف حقيقة العلوم الإنسانية بواسطة نقد العقل"، مرجع مذكور، ص:25.